منظومـــــــة الإستبـــــــداد

د. محمـــد المهـــدي- الطـــب النفســـي ، مصـــر
mahdy1956@hotmail.com

استشرت منظومات الإستبداد طويلا في العالم العربي في صور أنظمة ملكية أو حتى جمهورية , وتشوهت صورة العالم العربي داخليا وخارجيا بسبب وجود أنظمة دكتاتورية تقوم على القهر والإستبداد واحتقار الشعوب واستحمارها وإذلالها ونهب وتبديد ثرواتها مستندين في ذلك إلى قوة بوليسية ضخمة ومرعبة . وقد سادت حالة من اليأس من تغيير هذه الأنظمة التي لم تكتف بكل ما ذكرناه تجاه شعوبها بل تحالفت هذه الأنظمة في تسليم إرادة الأمة لأعدائها وفي التفريط في مقدساتها , وكنا نرى اجتماعات القمة العربية المستفزة والتي تعكس صورة الإنهيار المخزي في الأنظمة العربية بلا استثناء , وكان هذا يصيبنا بحالة من اليأس والأسى تزداد مع استمرار تعرضنا للقهر والإهانة من العدو الصهيوني كل يوم وهو يتكئ في قهره وإهانته لنا على هذه الأنظمة الفاسدة المترفة .

والحمد لله فقد لاحت تباشير فجر عربي جديد على أيدي جيل عربي مختلف ثار ضد منظومات الإستبداد في العالم العربي وبدأت شرارته في تونس وانتقلت إلى مصر وهاهي تواصل زحفها نحو ليبيا واليمن وغيرها لتتغير الخريطة العربية ويتغير معها التاريخ العربي الحديث . والأمر يحتاج ليقظة وعمق معرفة بخصائص منظومة الإستبداد التي تكررت في التاريخ العربي بشكل ملفت للنظر وكانت لها ملامح مشتركة نرصدها فيما يلي :

تتضمن منظومة الإستبداد صفات المستبد (بكسر الباء) والمستبد (بفتح الباء) بهم (المستعبدين) وطبيعة العلاقة بينهما , والبيئة التى يعيشون فيها . وفيما يلي أهم عناصر تلك المنظومة :

1- **التأله (العلو والكبر) :** يشعر المستبد بعلوه على من حوله من البشر وملكيته لهم , وبالتالى يطلب منهم الطاعة والانقياد , ولا يسمح لهم بمخالفته أو مناقشته , ويتقمص صفات القاهر الجبار . وهكذا شيئاً فشيئاً تتضخم ذاته خاصة مع خضوع من حوله , ويصل فى النهاية إلى الاعتقاد بألوهيته , وهذا هو نهاية متصل الاستبداد والذى وصل إليه فرعون حين قال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : 24] , وقال : ﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى﴾ [القصص : 38].

2- **الاستخفاف :** وفى داخل نفس المستبد استخفاف واحتقار لمن يستبد بهم , ويزيد هذا الشعور بداخله كلما بالغوا هم فى طاعته ونفاقه والتزلف إليه لأنه يعلم بداخله كذبهم وخداعهم , ويعلم زيف مشاعرهم , ويشك فى ولائهم وإخلاصهم , كما أنه من البداية يشك فى قدراتهم وملكاتهم وجدارتهم , وبالتالى يصل فى النهاية إلى الشعور بالاستخفاف بهم . وكلمة الاستخفاف التى وردت فى القرآن الكريم ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه﴾ [القصص4] تحمل فى طياتها معانى الاحتقار والاستهزاء والإذلال والاستغلال .

3- **الجبروت والعناد :**- فالمستبد جبار متجبر عنيد وهى صفات متصلة ببعضها لأن جذورها فى النفس واحدة , فالمعنى اللغوى للجبّار " هو الذى يقتل على الغضب " وتجبَّر الرجل بمعنى تكبر (مختار الصحاح لمحمد بن أبى بكر الرازى المتوفى سنة 666 هجرية – دار الجيل – بيروت – لبنان ص91,90 طبعة عام 1407هـ 1987م) . فمنظومة الاستبداد تبدأ بالتكبر والاستعلاء الذى يصل إلى درجة التأله , ومن هنا كان بغض الله للمستبد وسخطه عليه لأنه ينازعه صفة الجبار وينازعه الألوهية بصفة عامة , وينازعه نفاذ الأمر الذى لا يبدل ولا يغيَّر , ولهذا توعده العذاب الشديد , فعن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن فى جهنم وادياً , وفى الوادى بئر يقال له هبهب , حق على الله أن يسكنه كل جبار عنيد » (راوه الطبرانى بإسناد حسن كما قال المنذرى فى الترغيب , والهيثمى فى : المجمع 197/5 والحاكم وصححه ووافقه الذهبى 332/4).

وعن معاوية رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « ستكون أئمة من بعدى يقولون فلا يرد عليهم قولهم , يتفاحمون فى النار كما تفاحم القردة » [رواه أبو يعلى والطبرانى , وذكره فى صحيح الجامع الصغير برقم 3615] .

وواضح من طريقة العذاب عظم الجرم الذى يقع فيه كل طاغية ومستبد ودكتاتور فى أى موقع وعلى أى مستوى .

والمتكبر لا يحتمل اختلافاً فى الرأى , بل لا يسمح من البداية أن يكون هناك رأياً آخر يزاحمه لأن هذا الرأى الآخر يعتبر قدحاً فى تألهه وجبروته فهو يفترض أنه على صواب دائماً وأن ما يراه هو الحق المطلق , وبالتالى فهو يعتبر أن صاحب الرأى الآخر سفيهاً أو مضللاً ومتعدياً على مقامه الأرفع ومن هنا يكون غضبه شديداً يصل إلى درجة قتل المخالف مروراً بتعنيفه أو سجنه أو تعذيبه أو نفيه .

والمتكبر دائماً وأبداً عنيد لأنه يفترض أنه يمتلك الحقيقة المطلقة وبالتالى لا يقتنع برأى آخر ولا يريد أصلاً ولا يقبل أن يكون هناك رأى آخر .

4-الفسق :- ومع استمرار السلوك الاستبدادى يتحول الناس (المستبد بهم) إلى كائنات مشوهه وذلك من كثرة الأقنعة التى يلبسونها لإرضاء المستبد فيتفشى فيهم النفاق والخداع والكذب والإلتواء والخوف والجبن وتكون النهاية كائنات مشوهه خارجة عن الإطار السليم للإنسان الذى كرمه الله , والقرآن الكريم يصفهم بالفسق , والفسق هنا كلمة جامعة لكل المعانى السلبية التى يكتسبها الخاضعون للمستبد ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ [الزخرف 54] .

5- الفساد :- وحين تجتمع الصفات السلبية للمستبد مع الصفات السلبية للمستبد بهم تكون النتيجة بيئة مليئة بالفساد " وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد" [الفجر10-12] فالفساد نتيجة طبيعية ومباشرة للاستبداد مهما كانت مبررات الاستبداد ومهما كانت اللافتات التى يتخفى وراءها لأن الاستبداد تشويه للتركيبة النفسية للمستبد وتشويه أيضاً للتركيبة النفسية للمستبد بهم وبالتالى يحدث تشويه للبيئة التى يعيشون فيها , وكأن الاستبداد أحد أهم عوامل التلوث الأخلاقى والبيئى فى الحياة .

6- الضلا ل :- ونظراً لمحدودية رؤية المستبد وتشوه تركيبته النفسية منذ البداية ثم زيادة هذا التشوه نتيجة تضخم ذاته بالمدح والثناء من المستعبدين (بفتح الباء) , ورفضه للإسترشاد برؤى الآخرين , وإصراره العنيد على إنفاذ أمره وحده فإن النتيجة هى قرارات خاطئة فى كل المجالات « فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد » .

7- الهلاك :- والنتيجة المنطقية لتشوه المستبد وتشوه المستبد بهم , وفساد البيئة التى يعيشون فيها معاً هى الهلاك المحقق , فما من مستبد إلا ووصل بجماعته إلى الهاوية فضاع وضاعوا معه « فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعو ن برشيد ♦ يقدم قومه يوم القيامة فأوردوهم النار وبئس الورد المورود » (هود 98/97) .

« فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » (القصص 40) .

والهلاك ليس فقط فى الآخرة وإنما يسبقه هلاك فى الدنيا , وهلاك منظومة الإستبداد ليس قائماً فقط على إعتبارات أخلاقية أو دينية وإنما هو سنة كونية وقانون حياتى لأن الإستبداد يسير ضد تيار الحياة الإنسانية وهو تشويه للفطرة (للمستبد والمستبد بهم) ولذلك فلا يمكن أن يستمر طالما قُدِّر للحياة أن تستمر وتنمو وتتطور , فالمستبد مثل أى ميكروب او فيروس يدخل الخلية ويوجه نشاطاتها لخدمته وفى حالة عجز الخلية عن إكتشافه ومقاومته بجهاز المناعه لديها فإن المآل الحتمى هو ضد قانون تطور الحياة ونموها .

والأمثلة التاريخية لهلاك منظومات الإستبداد ليس لها حصر , ففرعون قد هلك غرقاً هو وجنوده , ونيرون أحرق كل شيء وإحترق معه , وشاه إيران ضاع وضاع ملكه ولم يجد فى نهاية حياته مأوى يؤيه وظل حائراً بطائر ته فى الجو وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت , وشاوشيسكو انقض عليه شعبه سخطاً وغضباً وألقاه فى مزبلة التاريخ , وقبلهم هتلر تسبب فى قتل 45 مليوناً من البشر ثم مات منتحراً أو مقتولاً تلاحقه اللعنات فى كل مكان , وصدام حسين أضاع ثروات العراق وأسلمها لاحتلال أمريكى بغيض لا يعرف أحد متى يرحل .

الإستبـــداد وعلاقتـــه بنمـــط الشخصيـــة

هل توجد أنماط شخصية معين تميل إلى السلوك الإستبدادى ؟

نعم , فدراسة حياة مشاهير المستبدين على المستويات المختلفة تؤكد وجود أنماط شخصية معينة تميل إلى السلوك الإستبدادى خاصة إذا واتتها الظروف , ومن هنا تصبح معرفة هذه الأنماط مهمة للوقاية من السلوك الإستبدادى ومن المستبدين . ونذكر من هذه الأنماط الشخصية ما يلى:-

1- **الشخصية النرجسية :** صاحب هذه الشخصية لديه شعور خاص بالأهمية وبالعظمة ويبالغ فى قيمة مواهبه وقدراته وإنجازاته ويتوقع من الآخرين تقديراً غير عادى لشخصه وملكاته وإنجازاته المبهرة فى نظره وهو يعتقد أنه متفرد فى تكوينه وفى أفكاره ويحتاج لمستويات عليا من البشر كى تفهمه وتقدره , ويحتاج للثناء والمدح الدائم والتغنى بجماله وكماله وأفكاره وبطولاته الأسطورية وتوجيهاته التاريخية ومواقفه العظيمة غير المسبوقة وهو لا يشعر بالتعاطف مع الآخرين ولا يتفهم إحتياجاتهم بل يريدهم فقط أدوات لتحقيق أهدافه وإسعاده وبلوغ مجده وهو أنانى شديد الذاتية ويسعى طول حياته ليضخم هذه الذات التى يعتبرها محور الكون , وربما ينجح فى الوصول إلى مراكز عليا فى الحياة بسبب إخلاصه الشديد فى تحقيق ذاته ورغبته فى التميز والإستعلاء على الآخرين .

2- **الشخصية البارانوية :** تدور هذه الشخصية حول محور الشك وسوء الظن , فصاحبها لا يثق بأحد ويتوقع الإيذاء من كل الناس ولا يأخذ أى كلمة أو فعل على محمل البراءة بل يحاول أن يجد فى كل كلمة أو فعل سخرية منه أو إنتقاصاً من قدره أو محاولة لإيذائه , ولهذا نجده دائم الحذر من الآخرين , لا يهدأ ولا ينام , ويكافح طول عمره ليقوى ذاته ويحمى نفسه من الآخرين « الأعداء دائماً وأبداً » , وهذا الشك والحذر وعدم الولاء للناس يدفعه للعمل الجاد والشاق لكى يصل إلى المراكز العليا فى مجال تخصصه , وهو حين يحقق ذلك يمارس السيطرة والتحكم فى الناس الذين يحمل لهم بداخله ذكريات أليمه من السخرية والإحتقار والإيذاء وبما أنه لا يسامح أبداً ولا ينسى الإساءة لذلك فهو يمارس عدوانه على من تحت يده انتقاماً وإذلالاً , ويحقر كل من دونه كراهية ورفضاً .

3- **الشخصية الوسواسية :** والشخص الوسواسى يميل إلى الدقة والنظام والصرامة والإنضباط ولا يحتمل وجود أى خطأ , وهو فوق ذلك عنيد ومثابر إلى أقصى حد , ولهذا يميل إلى أن يتأكد من كل شيء بنفسه ولا يثق فى أحد لأنه يعتبر الآخرين عشوائيين وغير منضبطين وأنهم سوف يفسدون الأمور التى توكل إليهم , لذلك نراه إن كان والداً أو مسئولاً يريد أن يستحوذ على كل شيء فى يده ويتابع كل شيء بنفسه ولا يترك لأحد فرصة للتعبير عن نفسه أو تحمل مسئولياته , فالآخرين فى نظره غير جادين وغير دقيقين وغير صارمين مثله وهم يحتاجون دائماً للوصاية والتوجيه والتحكم , فهم فى نظره أطفال عابثون يحتاجون فى النهاية لمن يضبطهم ويوجههم وإلا فسدت كل الأمور .

4- **الشخصية السادية :** وهو الشخص الذى يستمتع بقهر الآخرين وإذلالهم والتحكم فيهم وكلما شاهد الألم فى عيونهم استراح وانتشى وواصل تعذيبهم وقهرهم ليحصل على المزيد من الراحة والنشوة .

5- **الشخصية المعادية للمجتمع :** وهو نوع من الشخصية لا يحترم القوانين والنظم والشرائع, بل يجد متعه فى الخروج عليها , ولا يشعر بالذنب تجاه شيء أو تجاه أحد , ولا يتعلم من تجارب فشله , ويعيش على ابتزاز الآخرين واستغلالهم مستغلاً سحر حديثه وقدرته على الكذب والمناورة والخداع , وهو شخص لا يفكر إلا فى نفسه وملذاته , والآخرين ليسوا إلا أدوات يستخدمها لتحقيق ملذاته .

وبعد استعراض هذه النماذج الشخصية الأكثر ميلا للإستبداد نود أن ننوه أن المستبد يمكن أن يكون أحد هذه الأنماط ويمكن أن يكون خليطاً منها بعضها أو كلها .

أما المستبد بهم (المقهورين) فيمكن أن يكونوا أناساً ذوى سمات متباينة ولكن يغلب أن يكون لديهم سماتاً ماسوشيه بمعنى أن لديهم ميل لأن يتحكم فيهم أحد وأن يخضعوا له ويسلموا له إرادتهم ويستشعروا الراحة وربما المتعه فى إيذائه لهم و إذلاله إياهم , فلديهم مشاعر دفينة بالذنب لا يخففها إلا قهر المستبد وإذلاله لهم على الرغم مما يعلنون من رفضهم لاستبداده . وهؤلاء المستعبدين ربما يكون لديهم معتقدات دينية أو ثقافية تدعوهم إلى كبت دوافع العنف وتقرن بين العنف والظلم وتعلى من قيمة المظلوم وتدعو إلى التسامح مع الظالم والصبر عليه وترى فى ذلك تطهيراً لنفس المظلوم من آثامه .

والشخصيات المستعبدة لديها شعور بالخوف وشعور بالوحدة لذلك يلجأون إلى صنع مستبد ليحتموا به ويسيروا خلفه ويعتبرونه أباً لهم يسلمون له قيادتهم وإرادتهم ويتخلصون من أية مسئولية تناط بهم فالمستبد قادر على فعل كل شيء فى نظرهم , وفى مقابل ذلك يتحملون تحكمه وقهره وإذلاله ويستمتعون بذلك أحياناً .

إذن فالمستبد ليس وحده المسئول عن نشأة منظومة الإستبداد ولكن المستعبدين (المستبد بهم) أيضاً يشاركون بوعى وبغير وعى فى هذا على الرغم من رفضهم الظاهرى للإستبداد وصراخهم منه أحياناً . ولا تزول ظاهرة الاستبداد عملياً فى الواقع إلا حين تزول نفسياً من نفوس المستعبدين حين ينضجوا ويتحرروا نفسياً ويرغبون فى استرداد وعيهم وكرامتهم وإرادتهم التى سلموها طوعاً أو كرهاً للمستبد , حينئذ فقط تضعف منظومة الاستبداد حتى تنطفئ , وليس هناك طريق غير هذا إذ لا يعقل أن يتخلى المستبد طواعية عن مكاسبه من الاستبداد خاصة وأن نمط شخصيته يدفعه دفعاً قوياً للمحافظة على تلك المكاسب الهائلة . وإذا رأينا المستعبدين (المستبد بهم) ينتظرون منحهم الحرية من المستبد فهذه علامة سذاجة وعدم نضج منهم توحى ببعدهم عن بلوغ مرادهم وتؤكد احتياجهم لمزيد من الوقت والوعى ليكونوا جديرين بالحرية , فقد أثبتت خبرات التاريخ أن الحرية لا تمنح وإنما تسترد وتكتسب .

المستبـــــد ودافعـــــى التملـــــك والخلـــــود

إن دافعى التملك والخلود ليسا قاصرين على المستبد وحده فهما دافعين أساسين فى النفس البشرية وقد عرفهما إبليس وحاول اللعب عليهما عندما أراد أن يغوى آدم فقال له مغرياً إياه بالأكل من الشجرة المحرمة ﴿ قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ [طه : 120] . ﴿ وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ [الأعراف : 20] .

وفعلاً نجح الإغواء لآدم على الرغم من التحذير الإلهى له ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ [البقرة : 35] وعلى الرغم من إتاحة فرص التنعم المتعددة فى الجنة , وهذا يدل على قوة هذين الدافعين وعمقهما فى النفس البشرية , وعلى أنهما نقطتى ضعف يسهل الإغواء عن طريقهما .

ويبدو أن هذين الدافعين يكونان متخضمين فى نفس المستبد فهو لا يشبع من التملك وهو يسعى إلى الخلود وينكر فى أعماقه فكرة الموت . وكلما اتسعت دائرة نفوذه وكلما انتشرت صوره وتماثيله فى كل مكان كلما انزلق إلى الإعتقاد بفكرة خلوده , ولو أصابه المرض أو أدركته الشيوخة وأيقن بفكرة موته فإنه يتسمك بملكه ويتعلق بخلوده من خلال أبنائه فيحرص على توريثهم كل ما استطاع أن يتملكه فهم امتداد لذاته , وهذه هى سيكولوجية الأنظمة التى تقوم على فكرة التوريث حفاظاً على بقاء المُلك وخلود الذِكر .

مستويـــــات الاستبـــــداد

تبدأ بذرة الاستبداد داخل النفس ثم تنبت وتتمدد شجرته الخبيثة لتمد فروعها داخل الأسرة ثم داخل المدرسة ثم داخل المؤسسات ثم داخل المجتمع ثم داخل النظام السياسى حتى يصل إلى المستوى الدولى . وفيما يلى إيضاح لهذه المستويات :

1- **الاستبداد النفسى :-** ربما يكون هذا المفهوم غريباً بعض الشئ , ولكنه فى الحقيقة هو جذر شجرة الاستبداد , وهو النموذج الأولى للاستبداد (Prototype) ولكى نفهم الاستبداد النفسى لابد أن نعلم بأن النفس البشرية رغم وحدتها الظاهرة إلا أنها تتكون من كيانات مختلفة تختلف أسماؤها باختلاف النظريات النفسية , ففى النظرية التحليلية لفرويد نجد الهو والانا والأنا الأعلى , وفى نظرية التحليل التفاعلاتى لإريك برن نجد ذات الطفل وذات الناضج وذات الوالد , وفى علم النفس التحليلى نجد الأنيما والأنيموس ونجد القناع والظل , وفى نظرية كارين هورنى نجد الذات المثالية والذات الاجتماعية والذات الحقيقية .

وتبدأ فكرة الاستبداد داخل النفس حين يتضخم أحد الكيانات أو أحد الذوات داخل النفس على حساب الكيانات أو الذوات الأخرى وهنا يختل التوازن النفسى ويتوحش هذا الجزء المتضخم فى حين تضمر وتنسحب الأجزاء الأخرى منتظرة اللحظة المناسبة للانقضاض على الجزء المستبد , وفى كل هذه الحالات تمرض النفس أو تتشوه أو تهلك .

2- الاستبداد الأسرى :- ففى الأسرة تتأكد مفاهيم الحرية أو تنتفى , فهى المحضن الأول والأساس لقيم الحرية والمساواة والعدل وغيرها من القيم , فإذا مارس الأب أو مارست الأم الاستبداد كان ذلك بمثابة نموذج أوّلى للاستبداد يحمله الطفل معه ويتحرك بموجبه فى كل المواقع التى يذهب إليها , فهو يتصنع الخضوع والاستسلام ويسلم إرادته لوالده المستبد , ثم حين تواتيه الفرصة (حين يكبر هو أو يضعف أبوه) ينقض عليه منتقماً ومتشفياً .

3- الاستبداد المدرسى :- ويمارسه ناظر المدرسة على مدرسيه ثم يمارسه المدرسون على الطلاب ثم يمارسه الطلاب الأقوياء على الطلاب الضعفاء .

وبما أن المدرسة داراً أساسية للتربية فهى تنمى ذلك السلوك وتدعمه بل وتعطيه شرعيه تربوية وأخلاقية .

4- الاستبداد المؤسسى :- وهو امتداد طبيعى للاستبداد الأسرى والاستبداد المدرسى حيث تقوم كل المؤسسات على فكرة شخص واحد كبير يعرف كل شئ ويتصرف وحده فى كل شئ , وقطيع من المرؤسين يسمعون ويطيعون . والعلاقة هنا بين الرئيس والمرؤس تقوم على الخوف والعداوة المستترة تحت غطاء من النفاق والخداع .

5- الاستبداد الدينى :- فعلى الرغم أن الدين الصحيح يؤكد مفهوم الحرية (حتى فى الاعتقاد الدينى نفسه) ويؤكد مفهوم المساواة ويؤكد مفهوم الشورى إلا أن بعض الأفراد أو بعض المؤسسات ربما تستغل بعض المفاهيم الدينية أو شبه الدينية لتمارس تسلطها على الناس بحجة أنها تتحدث باسم الإله وبأمره وأنها تملك الحقيقة المطلقة التى لا يصح معها حوار أو نقاش , وربما يكون هذا هو أخطر أنواع الاستبداد لأنه يذل أعناق البشر باسم الدين وتحت رايته . وهذا النموذج نراه واضحاً فى زوج يقهر زوجته محتجاً بنصوص مأخوذة بغير معناها وخارج سياقها , أو أب يستبد بأبنائه ويلغى إرادتهم شاهراً آيات الطاعة فى وجوههم , أو رجل دين يمنح صكوك الغفران لمن يرضى عنه ويلقى بسخطه وغضبه على من يخالفه , أو حاكم يتستر تحت مفاهيم دينية ليخفى طغيانه .

ومن علامات الإستبداد الدينى تآكل منطقة المباح , تلك المنطقة فى السلوك البشرى التى سكت الله عنها لا نسيانا ولا إهمالا وإنما ليعطى فسحة للعقل البشرى أن يتصرف بحرية فى أشياء لاتقع فى منطقة الحلال أو منطقة الحرام . ومنطقة المباح هذه هى التى قال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم " أنتم أعلم بأمور دنياكم " , وهى منطقة أرادها الله أن تكون واسعة وأن يحررها من قيود الحلال والحرام لكى يعطى العقل البشرى فسحة للعمل والإبداع دون حرج . وفى مجتمعات الإستبداد الدينى تعلو أصوات رجال الدين معلنة تحكمهم فى كل صغيرة وكبيرة فى حياة الناس تحت زعم أن الدين لم يترك شيئا إلا ووضع له حكما , ونسوا أو تناسوا أن حكم منطقة المباح أن تكون حرة , وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يكره كثرة السؤال حتى لايقع الناس فى فخ التشديد والإلزام فى أشياء لاتستدعى ذلك . وهذه المجتمعات التى تتآكل فيها منطقة المباح ويصبح الناس أسرى لآراء رجال الدين فى كل صغيرة وكبيرة يقعون فى فخ " الكهنوت " وهو مقدمة الإستبداد الدينى .

6- الاستبداد الاجتماعى (الطبقى) :- بمعنى أن تستبد طبقة ما بمقاليد الأمور مثل طبقة النبلاء أو الإقطاعيين أو طبقة رجال الأعمال أو طبقة البروليتاريا , فى حين تستبعد باقى الطبقات وتعيش مقهورة ذليله ولا تملك إلا الإنتظار المؤلم الحقود للحظة تتمرد فيها وتنقض على الطبقة المسيطرة وإذا انتصرت هذه الطبقة الجديدة المنقضة أو الثائرة أو المتمردة فإنها تستبد هى الأخرى بالأمور وتلغى أو تستبعد أو تستعبد الطبقات الأخرى وتبدأ دورة جديدة من دورات الاستبداد تنهك قوى المجتمع وتفقده أفضل ملكاته وإمكاناته .

7- الاستبداد السياسى :- وهو أكثر مستويات الاستبداد شهرة لدرجة أنه حين تذكر كلمة الاستبداد يخطر فى الذهن مباشرة هذا النوع من الاستبداد دون غيره , ربما لأنه الأكثر وضوحاً أو الأكثر شيوعاً أو الأوسع تأثيراً . وهذا الوضوح وهذه الشهرة للاستبداد السياسى يجعلنا فى غنى عن الحديث عنه بالتفصيل فقد أصبح من البديهيات ولكننا فى فقط ننوه إلى جذوره التى جاءت من نفس مستبدة وأب مستبد وناظر مستبد ومدير مستبد ووزير مستبد ورجل دين مستبد , فالاستبداد السياسى ثمرة مرة لثقافة استبدادية على مستويات متعددة وهو لا يزول بمجرد ثورة أو انقلاب ولكنه يزول حين تسرى ثقافة الحرية والمساواة والعدل فى كل أو أغلب المستويات سابقة الذكر . وسريان ثقافة الحرية وحده لا يكفى بل لابد من أن يكافح معتنقوا الحرية من أجل ترسيخ آليات لممارسة الحرية مثل الشورى أو الديموقراطية أو أى آلية أخرى تكون ضماناً لاستمرار الحرية وحاجزاً أمام كل مستبد طامع يحاول الانقضاض فى أى لحظة على هذه القيم تحت أى لافتة مهما كانت براقة .

8- الاستبداد الدولى :- وقد أصبح هذا الاستبداد واضحاً منذ ظهور عالم القطب الواحد حيث تتحكم الامبراطورية الأمريكية الآن – منفردة – فى مقاليد الأمور , حتى الهيئات والمنظمات الدولية التى نشأت للمحافظة على الشرعية الدولية قد أطيح بها وأصبحت أداة فى يد الدكتاتورية الأمريكية المستبدة . وتقوم بريطانيا بدور هامان للفرعون الأمريكى المتغطرس فبريطانيا لديها طموح سياسى تحققه من خلال تقديم الخدمات لأمريكا وتبرير أفعالها والسير فى ركابها وتقوم اليابان والصين بدور قارون المستفيد مادياً من هذا النظام العالمى الفاسد . أى أن أطراف الثالوث الاستبدادى (فرعون وهامان وقارون) التى ذكرناها آنفاً متحققة تماماً فى النموذج الدولى .

وهذه الأطراف الاستبدادية تتحكم فى مقدرات الضعفاء والمستضعفين والخاضعين والمستسلمين من شعوب العالم .

أطـــــراف الاستبـــــــداد

وهناك أطراف (أو أضلاع أو أركان) ثلاثة للاستبداد تتحالف مع بعضها وتتآمر لخلق منظومة الاستبداد التى تحاول أن تستفيد منها (أو تتوهم أنها ستستفيد منها) ويحدد الدكتور / يوسف القرضاوى (فتاوى معاصرة , الجزء الثانى , دار الوفاء المنصورة , الطبعة الثالثة 1415هـ – 1994م صفحة 639) أطرافاً ثلاثة للإستبداد هى :

- الأول :- الحاكم المتأله المتجبر فى بلاد الله , المتسلط على عباد الله , ويمثله فرعون .
- والثانى :- السياسى الوصولى , الذى يسخر ذكاءه وخبرته فى خدمة الطاغية , وتثبيت حكمه , وترويض شعبه للخضوع له ويمثله هامان .
- والثالث :- الرأسمالى أو الإقطاعى المستفيد من حكم الطاغية , فهو يؤيده ببذل بعض ماله , ليكسب أموالاً أكثر من عرق الشعب ودمه , ويمثله قارون .

ولقد ذكر القرآن هذا الثالوث المتحالف على الإثم والعدوان , ووقوفه فى وجه رسالة موسى , حتى أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ♦ إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ﴾ [غافر : 24,23] . ﴿وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين ﴾ [العنكبوت 39] .

والعجيب أن قارون كان من قوم موسى , ولم يكن من قوم فرعون , ولكنه بغى على قومه , وأنضم إلى عدوهم فرعون , وقبله فرعون معه , دلالة على أن المصالح المادية هى التى جمعت بينهما , برغم اختلاف عروقهما وأنسابهما (انتهى كلام الدكتور / يوسف القرضاوى) .

أدوات الاستبـــــــداد

لابد للاستبداد من أدوات للترهيب والترغيب حتى تخضع له الرقاب ويسلم له العباد (أو العبيد) إرادتهم وخياراتهم .

والمستبد يعرف جيداً مواطن ضعف البشر ويحاول استغلالها بأبشع الطرق وأكثرها حقارة ودهاءاً فى نفس الوقت . ونذكر من هذه الأدوات حسب ترتيب أهميتها :-

1- السلطـــــــة : فالأب المستبد يستغل نفوذه المالى وقوته الجسدية ومكانته المعنوية فى قهر أبنائه , والزوج المستبد يستغل حق القوامة (كما يفهمه) ويستغل تفوقه العضلى وربما المالى فى إذلال زوجته ووأدها , والمسئول المستبد يستغل ما يملك من صلاحيات للتحكم فى رقاب مرؤسيه , والحاكم المستبد يستغل جنوده (الشرطة والجيش) لإرهاب رعيته ويستغل النظام السياسى الموالى له لإضفاء الشرعية على أفعاله وتجريد خصومه من تلك الشرعية ووصفهم بالتآمر والخيانة والإفساد فى الأرض وتعكير صفو الأمن .

والقرآن يصور هذا الموقف فى قوله تعالى : ﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾ [القصص 8] . وقوله ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ [القصص 40] .

2- المـــــال :- ومن لا يصلح معه الترهيب بالسلطة يصلح معه الترغيب بالمال , ولهذا يحرص المستبد على إمساك الثروة فى يده لتكون وسيلة ضغط على من تحت يده ووسيلة ترغيب وشراء ذمم .

3- المناصب :- ينتقى المستبد من بين الناس أولئك المتعطشين للمناصب والراغبين فى العلو بأى ثمن فيستخدمهم ويستعملهم كدروع له وكأدوات لحمايته وتبريد أفعاله وتمجيده وتحلية صورته أمام العامة .

4- **الإعلام :-** فالمستبد يحتاج لمن يدارى سوءاته ويزين عوراته ويسوق مشروعاته وأفكاره بين الناس ويبرر أخطائه ويحولها إلى انتصارات ويمارس الترييف للوعى والتخدير للعقول ودغدغة المشاعر طول الوقت . ومن هنا يمكن أن نعتبرالإعلاميين الموالين لأى مستبد بمثابة سحرة فرعون الذين كانت مهمتهم أن يسحروا أعين الناس بمعنى تزييف وعيهم .

5- **رجال الدين :-** ونقصد بهم فئة معينة من رجال الدين يقبلون إضفاء شرعية دينية على فكرة الإستبداد وإضفاء شرعية على كل أفعال المستبد وإستغلال المفاهيم الدينية لتبرير وتمرير كل ما يقوم به المستبد , وإصدار الفتاوى المبنية على تفسيرات تلوى عنق الحقيقة لمصلحة المستبد . وكل مستبد يسعى إلى تقريب عدد من رجال الدين (حتى ولو كان هو ملحداً أو علمانياً) لمعرفته بقيمة الدين لدى الناس وتأثرهم به .

المستبـــد يصنعـــه النـــاس مـــن حولـــه

قد يبدو للنظر القصير أن مجموعة المحيطين بالمستبد ضحايا له إذ يعانون من إستبداده ويتحملونه على مضض وهذا صحيح من جانب واحد أما الجانب الآخر فهو أنهم شاركوا فى صنع هذا المستبد , بعضهم شارك بالأقوال والأفعال التى ضخمت ذات المستبد (كالمدح والثناء والتبرير لكل صفات المستبد وأفعاله والمشاركة فى تنفيذ مشروعات المستبد) وبعضهم الآخر شارك بالصمت والإنكماش مما سمح لصوت المستبد أن يعلو عمن سواه وسمح لذاته أن تتمدد فى الفراغ الذى انسحب منه الآخرون كرهاً أو طوعاً .

ولهذا كانت قاعدة تغيير المنكر واجبة وفاعلة على مختلف مستويات القدرة من اليد إلى اللسان إلى القلب (والإستبداد من أخطر المنكرات) : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده , فإن لم يستطع فبلسانه , فإن لم يستطع , فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » ... " أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر " .

وعلى الرغم من أن التغيير بالقلب يبدو هافتاً وضعيفاً إلا أنه مهم جداً حين يعجز الإنسان عن التغيير بالوسائل الأخرى (اليد واللسان) فبقاء الرفض القلبى للمنكر هو بمثابة بذرة للخير وجذوة للحق تظل كامنة إلى أن تتاح لها الظروف للنمو والظهور ولولاها لاختفى الخير وضاع الحق إلى الأبد .

والناس يدفعون ثمن سكوتهم على الإستبداد مرتين مرة فى الدنيا ومرة فى الآخرة ففى الدنيا فساد وضياع ومعاناة وفى الآخره عذاب شديد , وكأن الإستبداد خطيئة دنيوية وأخروية معاً . عن جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن عُجْره: « أعاذك الله من إمارة السفهاء يا كعب » قال وما إمارة السفهاء ؟ قال : أمراء يكونون بعدى , لا يهدون بهديى , ولا يستنون بسنتى , فمن صدقهم بكذبهم , وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا منى ولست منهم ولا يردون على حوضى , ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم , أولئك منى وأنا منهم وسيردون على حوضى » (رواه أحمد والبزار ورجالهما رجال الصحيح , كما فى إلى الترغيب للمنذرى , والزوائد للهيثمى 247/5) .

وعن عبدالله بن عمرو مرفوعاً : « إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم : يا ظالم , فقد تودع منهم » (رواه أحمد فى المسند , وصحح شاكر إسناده (6521) ونسبه الهيثمى للبزار أيضا بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح 262/7 , والحاكم وصححه ووافقه الذهبى 96/4) .

Arabpsynet
www.arabpsynet.com
Subscribe To APN
http://www.arabpsynet.com/Subs.asp

المجلة العربية للطب النفسي
http://www.arabpsynet.com/Journals/ajp/index-ajp.htm

Subscribe to APN Protected Links
SEND YOUR
Scientific CV
http://www.arabpsynet.com/cv/cv.htm

Subscribe to APN Editions
(APN Book, APN Journal, e.Psydict)
SEND YOUR
Scientific CV
http://www.arabpsynet.com/cv/cv.htm